٤- سيدنا لوط عليه السلام

رسول الأخلاق الحميدة

نستطيع أن نؤكد أن لوطًا عليه السلام من أنبياء اللّه ورسله الذين اصطفاهم لإبلاغ قومه أول رسالة أخلاقية نزلت من السماء ·· والمعنى المقصود من وراء ما ذكرناه ·· هو أن كل رسالات السماء التى حملها من قبل لوط عليه السلام ومن بعده جاءت فى الأساس برسالة واحدة مؤداها أن نعبد اللّه الواحد الأحد وننبذ عبادة ما دونه ، ونكون جميعًا مسلمين للّه موقنين بوحدانيته ، ومع ذلك فقد أضاف رب العزة بعض المهام الأخرى ·· لبعض رسله وأنبيائه من الذين بعث بهم إلى البشر ، وكان فى مقدمة هذه المهام تعليم الأقوام القيم الأخلاقية الحميدة التى تحفظهم وتحفظ النسل ، وهذه القيم كما نعلم كثيرة ومتنوعة ·· منها ما هو ظاهر ومحسوس ومنها ما هو معنوى لا نلمسه إلا فى الأفعال كنتائج مسلم بها·

ونبى اللّه لوط يُعد وفق هذا التصور ·· من أوائل أنبياء اللّه ورسله الذين حملوا إلى قومهم رسالتين ·· إحداهما تبغى التوحيد وتدعو إليه ·· والثانية وهى خاصة لقومه هى الدعوة للأخلاق الحميدة ونبذ المعاصى والمنكرات ، والتى كان فى مقدمتها نبذ الفحشاء ·· حيث كان الرجال يأتون الرجال شهوة من دون النساء !! ··

هذا الفعل الفاضح وللأسف قد ارتبط حتى يومنا هذا باسم النبى الكريم لوط ·· فأخذنا نسمع عبارات تستحق العقاب لمن يقولها ·· وكلنا قد سمع كذلك عن « اللوطيين » ! ·· و« اللواط » !! · إلى آخره من الألفاظ التى بات الناس يفهمونها

منسوبة إلى نبى اللّـه لـوط !· مـع أن العكـس هـو الصحيـح ·· إذ إن هـذه الأفعـال الفاحشة إنما تنسب لقومه وليس لجلال شخصه ورسالته ، وقد ذاب هؤلاء القوم الفاسقون وباتوا أسفل هذه الأرض وفى جوفها الموحش ·· بعدما قذف اللّه بهم عقاب جريمتهم هذه إلى قاع أحد بحاره المالحة !·

وظل النبى لوط عليه السلام ·· رمز الأخلاق الحميدة والدعوة إلى نبذ كل ما هو دون ذلك من الأفعال التى تشين الإنسان ، وتلوث أخلاقه ··

ولقد حفلت كتب السير وقصص الأنبياء بالعديد من الدراسات الحيوية عن هذا النبى الكريم وعن نسبه وحياته وصبره وحسن خلقه ·· لذلك فضلنا أن نبدأ حديث الابتلاء فى حياته بتقديم تعريف واف عنه وعن قومه ، قبل الوقوف بالتفصيل على ملامح ابتلائه سواء فى قومه الذين خدعوه وارتكبوا فاحشة لم يرتكبها أحد من العالمين من قبلهم ! ، وكان ابتلاؤه فيهم كبيرًا ومؤثرًا ، ثم ابتلاؤه كذلك فى امرأته التى انضمت إلى قومها فى تشجيع الفاحشة !·

ولوط عليه السلام وفق الإجماع هو ابن أخى إبراهيم الخليل - عليهما السلام - ·· وكان قد آمن مع إبراهيم عمه وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه اللّه إلى أهل سدوم وأعمالها ، التى أهلكهم اللّه بها ودمرها عليهم ، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ، وهى مشهورة ببلاد الغور ، والمتاخمة لجبال بيت المقدس ، وقال ابن كثير: إن لوطًا هو ابن تارح وهو آزر ، ولوط لذلك هو ابن أخى إبراهيم الخليل ·· ، فإبراهيم وهاران وناحور إخوة ، وهاران مات فى سن مبكرة فكفل إبراهيم لوطًا· لذلك كان ملازمًا لعمه فى مسيرته من أور إلى حاران ثم إلى دمشق ، كما رافقه فى زيارته لمصر ، وكانت له أغنام وعبيد وكانت ثروته منفصلة عن ثروة عمه إبراهيم·

ويرى العديد من المؤرخين أن هناك شبه تلازم بين قصة حياة لوط عليه السلام وقصة حياة عمه إبراهيم عليه السلام ·· سواء من حيث النشأة أو الرسالة· وإن اختلفا

فى المكان والهدف ، وقد ذكر لنا القرآن الكريم جزءًا من هذا التلازم فى قوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧١]. كما أكد لنا القرآن الكريم أن لوطًا من المرسلين فى قوله تعالى فى سورة الصافات ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات : ١٣٣].

وهناك لطيفة جميلة من لطائف التفاسير المعقولة قد أشار إليها حجة الإسلام الإمام الشيخ الشعراوى ، فيما يخص قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ ولم يقل أخوهم .. كما قيل بالنسبة لثمود أخاهم صالحًا ، وعاد أخاهم هودًا ، وبيان ذلك يرجع إلى أن لوطًا لم يكن من هذا المكان الذى بعث فيه ، فلوطًا كان هو وإبراهيم فى مدينة بعيدة ، ثم جاء إلى هذا المكان فرارًا من الاضطهاد هو وإبراهيم ، وفى هذه الحالة يكون طارئًا عليهم .. ولذلك لم يقل أخاهم الذى كان يقيم معهم ، ولكنهم قومه بمعنى أنه عاش معهم فترة فعرفوا أخلاقه وصفاته ، وأنسوا به لفترة من الزمن جعلتهم يعرفونه معرفة بعضهم لبعض ، وهذا يدل دلالة واضحة على دقة التعبير فى القرآن الكريم.

ابتلاؤه فى قومه

بعدما عاش لوط عليه السلام سنوات معدودات بين قومه الذين نزح إليهم تاركًا عمه إبراهيم عليه السلام فى أرض كنعان .. وتنفيذًا لأمر اللّه تعالى .. اكتشف أن بهم علة أخلاقية لم يسمع أو يشاهد مثلها من قبل ! وقد أتاه أمر السماء بضرورة التصدى لهذه الفحشاء ومقاومتها بكل شدة وبلا أدنى تهاون.

ولقد أقام لوط عليه السلام فى مدينة سدوم يدعو أهلها إلى عبادة اللّه وأن ينتهوا عما كانوا يقترفونه من فحش فى مجالسهم واعتدائهم على الغرباء.

وكما وردت قصة لوط عليه السلام مع قومه فى سور متعددة فى القرآن الكريم منها

كما يقول الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر: سورة الأعراف، وهود، والحجر، والأنبياء، والشعراء، والنمل، والعنكبوت، والصافات، والقمر، كما تكرر اسم «لوط» عليه السلام مع قومه فى القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة ..

ففى سورة الأعراف قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ۞ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ۞ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۞ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۞ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤].

وفى سورة هود آيات كريمة، تحدثت عن جانب مما دار بين لوط عليه السلام وقومه من محاورات، انتهت بهلاكهم وتدميرهم حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۞ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۞ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۞ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ۞ قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۞ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ۞ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٧٧ - ٨٣].

والمعنى كما يقول الدكتور طنطاوى فى تفسيره: «وبعد أن علم قوم لوط بوجود هؤلاء الضيوف عند نبيهم، جاءوا إليه مسرعين يسوق بعضهم بعضًا إلى بيته من شدة الفرح، ومن قبل هذا المجىء كان هؤلاء القوم الفجرة يرتكبون السيئات الكثيرة التى كان من أقبحها إيتاؤهم الرجال شهوة من دون النساء. ولما لم تفلح معهم نصائح لوط وإرشادهم بضرورة التوقف عن هذا العمل الذى صمموا

عليه مع ضيوفه ، وهم لا يعلمون حقيقة كونهم ·· ولا لوط نفسه ·· حيث كانوا ثلاثة من الملائكة المكرمين بعث اللّه بهم لهلاك قوم لوط ·· وقد تحرك هؤلاء الملائكة مفصحين عن حقيقة شخصيتهم ومهمتهم التى بعثوا من أجلها ، وذلك عندما رأوا الضيق قد بلغ ذروته داخل صدر النبى لوط عليه السلام بعدما رفض قومه نصائحه بالالتزام بالعفة والأدب ، وقالوا له ، وفق ما ذكره القرآن الكريم : ﴿ **قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ** ﴾ [هود : ٨١]·

عندئذ نهض جبريل عليه السلام وأشار بيده إشارة سريعة ففقد القوم المندفعون نحوهم أبصارهم ، وراحوا يتخبطون داخل جدران المنزل فخرجوا منه وهم يظنون أنهم يدخلونه ، وقد طمست إشارة جبريل عليه السلام أبصارهم·

ليس هذا فقط ·· بل لقد أخبر الملائكة لوطًا بالنتائج السيئة التى سوف تطول قومه بعد ساعات بعينها ، وبالتالى عليه أن يأخذ أهله ويبتعد عن هذه القرية، وحتى لا يصيبه ما سوف يصيبهم من العذاب والهوان·

ولقد التفتت الملائكة على حد قول أحمد بهجت إلى لوط وأصدروا إليه أمرًا أن يصحب أهله أثناء الليل ويخرج ·· وسيسمعون أصواتًا مروعة تزلزل الجبال ·· وبعد ساعات سوف يطولهم عذاب يقضى عليهم جميعًا ·· فامتثل لوط لأمر الملائكة ·· وبالفعل أخذ أهله فى جنح الليل هاربًا من هذه القرية الظالمة التى ينتظرها عذاب أليم بعد لحظات·

وعندما اقترب الصبح حسب وعد الملائكة جاء أمر اللّه تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ مَنضُودٍ ۝ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** ﴾ [هود : ٨٢-٨٣]·

وفى تفسير العلماء لهذه الآية كعقاب إلى قوم لوط قالوا : لقد اقتلع جبريل عليه السلام بطرف جناحه مدنهم السبع من قرارها البعيد ، رفعها جميعًا إلى عنان

السماء حتى سمعت الملائكة أصوات الديكة ونباح الكلاب بهذه المدن ، وقد قلب هذه المدن وهوى بها إلى الأرض ·· وأثناء هذه العملية كانت السماء تمطرهم بحجارة من الجحيم ، وقد أتت عليهم جميعًا حتى هلكوا ، ونجا لوط وأهله إلا امرأته كانت كذلك من المهلكين ·· لأنها خانته ووقفت مع قومها ضد دعوته إلى اللّه ، وهذا هو الابتلاء الثانى فى حياته - عليه السلام -·

وبعد وقوع العذاب الأليم على قوم لوط وهلاكهم جميعًا ·· وبعد نجاة لوط عليه السلام وأهله إلا امرأته ·· زار عمه إبراهيم حيث كان يقيم فى أرض كنعان وأخذ يقص عليه نبأ قومه ·· وأدهشه أن إبراهيم كان يعلم ذلك مسبقًا !·

ومن بعدها مضى لوط فى دعوته إلى اللّه غير آسف على قومه ، وإن كانت فعلة امرأته وخيانتها قد أثرت فيه فصبر ورضى بقضاء اللّه الذى عوضه خيرًا منها كما سنرى ذلك حالاً·

الابتلاء فى الزوجة

لقد لاحظنا أن حديث القرآن الكريم عن خيانة امرأة نوح عليه السلام والذى اعتبرناه نحن ابتلاء من اللّه فى أهله ·· لم يُذكر إلا فى آية واحدة من سورة التحريم ·· وجاء هذا الذكر ضمن حديث رب العزة عن خيانة امرأة لوط أيضًا ، والذى نعتبره كذلك نوعًا من الابتلاء الذى صبر عليه لوط وجزاه اللّه خير الجزاء ، وذلك عكس ما كان من أمر القرآن الكريم بالنسبة لخيانة امرأة لوط عليه السلام إذ جاء ذكرها فى أكثر من آية وأكثر من سورة قرآنية ، والسبب فى ذلك فى تصورنا هو فداحة ما ارتكبته امرأة لوط عليه السلام ·· التى أبلغت قومها كما يقول ذلك أغلب المفسرين بقدوم فريق الملائكة المكلفين بتعذيب قومها لما ارتكبوه من فحشاء لم يسبقهم بها أحد من العالمين ··

وهذا يعنى أن القرآن الكريم يتهم امرأة لوط بالخيانة وبالانضمام لقوم فاسقين يرتكبون الفحشاء وهى توافقهم على ذلك !.

فقد تحدث القرآن الكريم عن امرأة لوط فى سورة التحريم إذ قال رب العالمين : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠].

وفى تفسير هذه الآية يقول الدكتور رشدى البدراوى .. إن خيانة امرأة لوط عليه السلام تمثلت فى إخبار قومها بضيوفه وكانت كافرة وغير مؤمنة برسالته ، ولما علم القوم بهم جاءه قومه يهرعون إليه ، جاءوا محمومين مسرعين ، ولعل لوطًا تساءل بينه وبين نفسه عمن أخبر القوم بضيوفه .. وقد دلته حاسته النورانية التى استمدها من رسالته أنها لابد وأن تكون امرأته ، وهى التى غابت عن البيت قليلاً بعد حضور هؤلاء الضيوف.

ولقد حزن من غدرها وإفشائها سر ضيوفه وهو الأمر الذى حرص على كتمانه..

وفى سورة العنكبوت تحدث القرآن الكريم أيضًا عن امرأة لوط فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [العنكبوت : ٣٣ ، ٣٤].

وفى تفسير هذه الآية الكريمة قال الدكتور محمد جميل غازى رئيس المركز الإسلامى لدعاة التوحيد والسنة رحمه الله تعالى : الغابرون هم فى تعريف العصر « الرجعيون » فامرأة لوط عليه السلام امرأة رجعية مرتبطة بمجتمعها ، لكنه لم يستعمل لفظ « رجعية ، وإنما استعمل لفظ غابر .. ومنطق الرجعية فى مفهوم القرآن

الكريم هو الرجوع إلى تقاليد بالية وإلى أخلاق فاسدة وإلى عقائد منحرفة لم يردها اللَّه ولم يشرعها ..

وفى سورة الحجر جاء أيضًا ذكر امرأة لوط عليه السلام .. حيث قال رب العالمين: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۞ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ [الحجر: ٦٥- ٦٦]

وفى سورة الشعراء قال رب العالمين عن امرأة لوط: ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۞ إِلا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ ۞ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ۞ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ۞ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٧٠ - ١٧٥].

وهذه الآيات السابقة فيها تفسير أكثر لمصير امرأة لوط. إذ أمر رب العالمين ملائكته أن يأمروا لوطًا وأهله بالابتعاد عن هذه الظالمة، وألا يلتفت أحد من أهله إلى الوراء إلا امرأته التى كُتب عليها العذاب. فنظرت إلى الخلف فتحولت إلى تمثال من الملح أو من الحجارة وفق أقرب تفسير، وقد أصابها من العذاب ما أصاب قومها من جراء ما ارتكبته من أعمال الخيانة ..

ولنا أن نتصور ذلك الشعور الحزين الذى أصاب لوطًا عليه السلام حين فوجئ بالعذاب يحل بامرأته التى قيل إنه أنجب منها بنتين وولدًا نجاهم اللَّه مع والدهم لوطا. وقد تقبل هذا النبى الكريم حكم ربه فيما ابتلاه، راضيًا بما قدر عليه، وصبر صبرًا جميلاً .. وإنا لنراه قد أحس بالرضا والغبطة حين نجاه اللَّه وبقية أسرته من المؤمنين .. بعدما رأوا ما جرى للقرية الظالم أهلها .. والتى انقلبت رأسًا على عقب، وضاعت معالمها تحت البحر الميت على أكثر التفاسير.

كما أننى على يقين من أن هذا النبى رغم حزنه على انضمام امرأته للقوم

الكافرين كان يتمنى وقوع العذاب عليها لوقوفها فى صفوف هؤلاء الكافرين ، ولكنه الابتلاء والصبر والقدوة .. والشعور بالرضا بقضاء اللّه وقدره.

ولما نجّا اللّه لوطًا وأسرته الصغيرة دون امرأته .. رجع مرة أخرى إلى عمه إبراهيم عليه السلام فى أرض كنعان ، ولقد أفاض اللّه عليه الخير الكثير .. وبارك له فى أولاده وفى ثروته عوضًا عما فقده أثناء هذا الابتلاء العظيم.

ويؤكد على ذلك الدكتور رشدى البدراوى فيما رواه فى كتابه عن قصص الأنبياء والتاريخ ، الجزء الثانى .. بقوله : وأقام لوط عليه السلام فى مدينة صوغر ، وظل يدعو الناس إلى عبادة اللّه. وزوج ابنتيه ممن ارتضاهما خلقًا ودينًا ، وكان عمره آنذاك لا يزيد على خمس وأربعين أو خمسين سنة. فلابد وأن اللّه قد أبدله بزوجة مؤمنة شابة بدلاً من تلك العجوز الخائنة ، فولدت له ابنه الكبير مؤاب ، ومن بعده ابنه عمن ، فالمؤابيون هم ذرية مؤاب بن لوط وسميت أرضهم باسم مؤاب. والعمونيون هم أبناء بنى عمن الابن الأصغر للوط. وقد ارتحل هو وأبناؤه وأحفاده فى المنطقة الواقعة شمال البحر الميت وشرقى نهر الأردن ، وكانت عاصمتهم « ربة » أو « ربة عمون » ومكانها الآن مدينة عمان عاصمة الأردن[1].

* * *

(١) قصص الأنبياء والتاريخ ، جـ٢ ، مصدر سابق.